أنا الغريبة

أذكُر أولَ عودتنا إلى بلدنا – بعد اغتراب– أن سكنّا حيَّاً من أحياءِ غزة راق، جلُّه من النصارى، ببيوتهم الفارهة، وجنائنهم العامرة، وهدوؤهم المفرط، كأنّ الطير على رؤوسهم في كل حين..!

وكان أبي –*حفظه ربي ورعاه*– قد عمد إلى تسجيلي في مدرسةٍ لا تبعد عن بيتنا الجديد إلا ثلاثين متراً أو يزيد قليلا، وجعل صبيحة كل يوم يصطحبني إليها سيرا يوصيني طوال الطريق بوصايا الآباء المعتادة، ويسرِّي عني ببضع أحاديثَ خفيفة، نتضاحك لها سويّاً –وأنا الغريبة، ما لي صديقة بعد، ولا رفيقة– وأتقافز حوله، فيردُّني إلى جانبه، يجذبني إليه منبِّها بما سلف وأوصاني به من آداب الطريق...!

لبث هكذا أسبوعاً كاملا، حتى غلب على ظنِّه أنني حفظت الطريق– السهل اليسير– إلى مدرستي الجديدة، فكان أن أعدَّني في ليلتي: غداً –إن شاء الله– تذهبين وحدك..!

وكانت ليلة: عجّت بالكوابيس، وأمِّ إلياسَ العجوز تُطاردني بعكّازهاالمعقوف، وحدبة ظهرها المخيفة، وباب المدرسة بعيد، وأنا ما لي صديقة بعد، ولا رفيقة، أغافلها عن يمنتها لأجدها أمامي، فأدور حولها ليتلقَّفني العكّاز يأخذ بعنقي..!

أنتفض لأجد أصابع أمي الحانيات حول وجهي، توقظني للموعد المحتوم، فألوذ بالفراش أدّعي المرض، لتبسم هي: حيلةٌ مكشوفة...!

تعدُّ كأس الحليب العتيد، والذي تأباه معدتي المنقبضة من وجل، ترغمني عليه، مع الكثير من حديث الكالسيوم وهشاشة العظام الذي اعتادت –حفظها ربي ورعاها– إتحافي به مع كل فطور..!

صوت المذياع يتعالى بإفتتاحية برنامج: بريد الإسلام، تقدمة عزت حرج، لتغدو تلك الإفتتاحية مقياس تأخري من عدمه طوال سنيٍّ دراستي، وفيه الإيذان بوجوب المغادرة الآن، لتبدأ رحلة أوديسيوس.. إلى المدرسة..!

تزحف بي خطاي، أقدِّم قدماً وأُرجع أخرى، وأم إلياس نائمة تشخر ما تزال، لا يصحبني غير عصافير تسعى على أرزاقها بمزيد ثرثرةٍ نسميها زقزقة، وهبّات النسائم الصباحية تلهو حولي، فأُعنِّفُها بحركات يدي العصبية، وأُعيد ترتيب ما أفسدت..!

ولكنَّني ما دريت لم انتابني شعورُ المراقبة ذاك، فجعلت أتلَّفت- مخالفةً الوصايا- علِّي أتعثَّر بالعينين الملاحقتين، ولكن... بلا جدوى، فأزيدُ همَّاً على هم، ووجلاً على وجل، كأنّه ما كان ينقصني إلّا أحداث فيلم الأكشن هذا، كأنّ فيلم الرعب الذي أعيشه لم يكفني..!

ومضة.. ومضة تشق تلافيف دماغي المعبَّقة بالخوف، تعقبها نصف ابتسامة خبيثة، تليها تشنيكةُ الأنف المعتادة، لتكتمل الابتسامة، فتزقزق خطاي مُجدَّة نحو هدفي، كأنَّني أثبتُ أنَّني لها، لتعود الومضة إياها، ولكن هذه المرة سيطرت نصف الابتسامة الخبيثة على معالم وجهي، فجعلت خطاي تتخبَّط، وتتنكَّف الطريق، تتوه في معالمه الواضحة الجليَّة، فأدور حول نفسي بحيرةٍ تسلبني، ثم أقرر أن أقف.. وأبكي..!

حسناً، يبدو أن خطتي الثعلبية نجحت، علمت هذا مذ قرعت مسامعي صوت خطاه تجدُّ السير نحوي، لتأخذني في حضنه هنيهات رضىً وحبور، ليحملني بعدها، عائداً إلى الدرب الصحيح - الذي تخابثت عنه- ويهمس في أذني، وهو يربتُ على ظهري: لا بأس، ربما تحتاجين أسبوعاً آخر ..!

أزيدكم! طيب، ما علمته أنّه كان يدري بتخابثي، وكانت ذات النصف ابتسامة إياها ترتسم على محيَّاه الحبيب وهو يحملني، ولكن: لأنّ ليس لي صديقة بعد، ولا رفيقة، ولأنني غريبة بلاد - مثلما يقولون- و لأنّه أبي الذي ظفره بالدنيا ومن فيها.. حسناً، تعلمون.